

جولة في ربوع أفريقية

لمحمد ثابت

بقلم الدكتور محمد عوض محمد

ليس من السهل أن نجد في هذا القطر كله لمحمد ثابت ضريبا ولا شيئا في حبه للرحلات البعيدة ، وفي التضحية بوقت نفيس وبمال أنفس ، في سبيل ارضاء هذه الرغبة السامية ، التي تدفعه في كل صيف إلى أطراف العالم ، لكي يرى بعينه تلك الأقطار البعيدة التي طالما سمع عنها وتاقت نفسه لمشاهدتها . . . وأى امرئ لا يملكه الإعجاب الشديد حين يرى محمد ثابت ينفق من ماله القليل الذي ادخره بكثير من حرمان النفس ، ينفق عشرين جنيا كاملة من أجل رحلة بالسيارة من (كمبالا) على بحيرة فكتوريا الى (فورت پورتال) على سفح رونزورى — مسافة لا تزيد كثيرا على ما بين القاهرة والاسكندرية — لكي يتمتع الطرف بالتأمل في تلك الجبال الشاخحة ساعات قلائل ، وقد اختفت قللها تحت غشاء كثيف من السحاب والضباب . ثم يعود أدراجه الى كمبالا لكي يستأنف سياحته الطويلة .

وفي المصريين كثير من ينزحون عن قطرنا صيفا . . . ولكن هؤلاء لهم شأن غير شأن صديقنا ثابت ، وقصة غير قصته . هؤلاء قبلتهم إما فيشى أو كارلسباد يتداوون بمائها الشافي مما أزلوه بأجسامهم من نتائج الإفراط أو التفریط . أو قبلتهم باريس حيث يحيون حياتهم في القاهرة ، يجلسون النهار كله وشطرا من الليل في مقاهى مدينة النور — وهم لا يرون من نورها شيئا — يقضون وقتهم قعودا كسالى يتحدثون وهم في ميدان الأوبرا بذلك الصوت المصرى الجمهورى فيسمعهم جميع من بالبوليفارد ، يعلنون عن أنفسهم ، وما في أنفسهم شيء يستحق الاعلان ، ومنهم من هو شر من هذا . . . وأى شر ! ولكن مالى أكدر نفسى بالكلام عن هؤلاء . وأنا أريد أن ينشر صدرى بالكلام عن محمد ثابت ؟ منذ ثلاثة أعوام جال محمد ثابت في ربوع أوروبا ، فلم يزل ينتقل من قطر الى قطر حتى بلغ جزيرة أيسلنده وكان من الدائرة القطبية قاب قوسين أو أدنى . . . وفي الصيف التالى يمم شطر المشرق وجال في بلاد الهند والصين واليابان ؛ وفي الصيف الماضى حملته السفينة باسم الله مجراها ومرساها الى شرق أفريقية وجنوبها . فاحترق خط الاستواء للمرة الأولى — إذ لا أظنه اجتازه في

أن تطرد ، ولا جزائه أن ترتبط ، ولا بجائه أن تتجمع ، فجاء من حيث التآليف مدمج الفصول ، مرسوم الوجهة ، محدود الغاية ، بريئا مما يجره عدم الخطّة أو فسادها من استطراد مشّت في جهة ، وأخلال مرهق في جهة أخرى ، وتلك مزية قل أن تجدها في كتاب

صاحب ضحى الاسلام شديد البقطة ، مستقل الرأى ، لا يعرض قولاً دون مناقشة ، ولا بحثاً دون مقدمة ، ولا رأياً دون دليل ، ولا تشعر وأنت تقرأه أن هناك رأياً معينا تسلط عليه ، أو فكرة سابقة أثرت فيه ، فهو يخطئ (جولدزهيير) ، كما يخطئ ابن خلدون ، ويعرض الثقافات الدينية المختلفة بميزان واحد ولسان واحد

تبدو هذه البقطة ، ويتجلى هذا الاستقلال ، منذ الكلمة الأولى في الكتاب ؛ أذ يفضن إلى الخطأ الذى جره على بعض المؤرخين الكسل والتقليد في تصويرهم سقوط الأمويين وقيام العباسيين حداً فاصلاً بين حياتين مختلفتين للأمة الإسلامية ، بتبدى الثانية عند انتهاء الأولى ، ثم يتجلى في سائر الفصول وعلى الأخص في الشعوية والاسترقاق والزندقة ، فليس وراء ما كتبه فيها مراغ لمستريد

وصاحب ضحى الاسلام أديب بارع ، وعالم ضليع ، يظهر أدبه في الصور التي رسمها كصورة الرشيد ، والتراجم التي وضعها كترجمة ابن المقفع ، وتلك الصورة وهذه الترجمة نموذجان عاليان لكاتب التاريخ ومؤرخ الأدب . ويتحقق علمه في كثرة المصادر التي رجع إليها ، ووفرة النتائج التي حصل عليها ، وعرضه للثقافات ، ولا سيما الهندية ، عرضاً ينم عن اطلاع واسع واستقرا ، دقيق وصبر نادر ،

وكل ذلك والتواضع الاصيل في الطبع يأبى للمؤلف أن يصدق ما يقوله العلماء ، والمستشرقون من أنه مثال الباحث الجامعى الحق ، وكتابه نموذج البحث العلمى الصحيح الزيات

□□□□□□□□□□

الرسالة والاعلان

تستطيع الرسالة أن تؤدي للتجارة خدمة جليلة بالاعلان فيها . فان لها من سعة الانتشار في الأوساط العليا والوسطى في مصر والبلاد العربية ما يكفل لها التوفيق في هذه الخدمة .

جولته الآسيوية — ثم عاد الى مصر بطريق البر والنهر — نهر النيل — مجتازا بلاد كينيا وأوغنده والسودان المصرى .

وإني ليحزنى أن اعجابى الذى لا حد له بالرحالة محمد ثابت لا ينصرف الى الكتاب الذى بين يدي الآن (جولة فى ربوع افريقية) فان شخصية المؤلف لم تنصف شخصية الرحالة . ولم تقم بالواجب نحوها .

فتحت (جولة فى ربوع افريقية) وأنا أتوقع أن أطالع كتابا يصف لي رحلة المؤلف وحركاته وسكناته بدقة ، ويصور لى كل شيء رآه ، وما مر به من الحوادث . لكنى أشعر أنى معه الإلزامه فى رحلته أسافر كما يسافر وأرى ما يرى . وهذه هى اللذة الخاصة التى أجدتها فى مطالعة كتب الرحلات . لكن محمد ثابت لم يفعل هذا بل أخرج لنا كتابا يتضمن بيانات — لا أنكر أن أكثرها نافع مفيد — عن جغرافية شرق افريقية ، وقد ضاع حديث الرحلة بين الفصول الجغرافية كما تضيع قطع الذهب وسط أكوام من التراب فكنت أجد له لأقل المناسبات يترك موضوع الرحلة تماما ، ويأخذ فى كتابة فصل جغرافى فى شيء من الأسباب ، ولكنه خارج عن موضوع الرحلة . ففى صفحة ٧٦ بيان طويل عن السكر وزراعته لافى افريقية وحدها بل وفى غيرها من الأقطار ، ويتكلم فى صفحة ٥٦ و٥٧ عن بلاد روديسيا والكنغو مع أنه لم يرها ولم يمر بهما ، ويكتب فضلا طويلا عن جبل كلمنجارو مع أنه رآه عن بعد مائة كيلو متر ، وفصلا عن تاريخ اوغنده أو عن نقل السفن الى بحيرات فكتوريا منذ عشرات من السنين . ويىانا عن الكركدن ولم يره وفصلا طويلا عن الشلوك أقنسه من دراسته الخاصة لئلا يراه فى رحلته وهذه التفاصيل الخارجة عن الرحلة قد طغت على حديث الرحلة حتى لم يبق منه الا القليل . وإنى أريد أن أذكر لصديقنا الفاضل أن أمامنا كتابا كثيرة نستخلص منها تاريخ إفريقيا جوغرافيتها . ولكن الذى بنا إليه شغف شديد ، والذى يستطيع هو وحده أن يعطينا إياه ، هو كتاب عن رحلة محمد ثابت . ولهذا كان أمتع فصول الكاتب على الإطلاق هو ذلك الجزء الذى يصف لنا فيه كيف منع من دخول جنوب إفريقيا ، وكيف جنت عليه مصيرته فى تلك الأقطار النائية . هذا الفصل للقارىء هو بمثابة الجوهرة وسط الأحجار .

ويخيل الى أن محمد ثابت لم يكن يكتب مذكرات (يومية) أثناء رحلته . ولو فعل لكان لديه محصول وافر يغنيه عن تلك الفصول الجغرافية . وانك لتقرأ الكتاب فلا تستطيع أن تستبين منه تفاصيل حركات السائح . فقد دخل (نيروى) ولكنه لا يذكر لنا فى أى تاريخ نزل بها . وبات ليلة فى (ناكورو) فلا

يخبرنا أين بات . ويمر بأوغنده ويقضى بها أياما ، ولكنك لا تعرف متى دخلها ومتى خرج منها . ولست أستطيع أن أعزو هذا الاغفال الا لشيء واحد هو أنه لم يكتب مذكرات يومية أثناء السياحة . ولهذا أرجو منه فى سياحته المقبلة ألا ينام ليلة قبل أن يدون مشاهدات يومه . وسيرى القراء الفرق بين الكتاب الجديد والقديم .

بقى أنى وجدت هفوات يسيرة أريد أن أنه المؤلف الفاضل اليها وهى (ص ٦) أن لفظ Periplus عنوان كتاب لا اسم أحد المؤلفين ، وشيا وسيأ كلمة واحدة (ص ٧) فيقال بالانكليزية ملكة شييا وبالعربية ملكة سيأ وهى بعينها السيدة الفاضلة التى دخلت صرح سليمان وحسبته لجة . . . ونهر النيل (ص ١٦٩) لم يعد أعظم نهر فى العالم ، لأم حيث الطول ولا من حيث مقدار ما يجرى فيه من الماء . . . ديتليموس الجغرافى (ص ١٦٩) لم يعيش قبل الميلاد بل فى القرن الثانى بعد الميلاد وغابات ايشورى فى الناحية الغربية للجبال روزورى فلا يمكن أن ترى من حصن يورتال . والغورلا ياسيدى ثابت حيوان ليس له ذنب (ص ١٩٧) فقد اضطر الى أن يستغنى عن هذه الزائدة استعدادا لان يكون انسانا مثلى ومثلك ومثل كواكب السينما ، وأخيرا لا أوافق المؤلف على أن قطن الجزيرة يزرع فى الشتاء ويحصد فى الربيع . . بل يزرع فى أواخر الصيف (ابتداء من اغسطس) ويحصد فى الشتاء ابتداء من يناير . (ص ٢٦٩)

وإني لأرجو لصديقنا السائح الفاضل رحلة سعيدة فى الصيف الآتى وأن يتحفنا بعدها بكتاب عن تلك الرحلة وعن نفسه لاعن شيء آخر

الثقافة

مجلة شهرية جامعة

يصدرها بدمشق الأستاذ خليل بك مردم والدكاترة جميل صليبا وكاظم الداغستاني وكامل عياد وغايتها نشر الثقافة العامة فى بلاد الشرق العربى وخدمة

النهضة الفكرية فيها . وقد صدر العدد الأول منها فى أول ابريل حافلا بالموضوعات الممتعة والبحوث الطريفة فى الآداب والفنون والعلوم والاجتماع والتاريخ والفلسفة . ومن يعرف الآديب الكبير مردم بك وزملاءه الأفاضل لا يستغرب هذا المجهود المحمود ، فترجو للزميلة الحليمة التوفيق فى أداء رسالتها وتحقيق غايتها